

هل أدت الجامعة رسالتها؟

للدكتور زكي مبارك

أخي الأستاذ الزيات

في عصرية السبب الماضي أقيمت مناظرة في كلية الآداب أريد بها تحديد المدى الذي وصلت إليه الجامعة في تأدية رسالتها العلمية والأدبية والاجتماعية، واشترك في المناظرة طالب وطالبة، واثنان من الخريجين، واثنان من المدرسين، وقد دامت المناظرة نحو ثلاث ساعات، وحضرها جماهير من بيئات مختلفات، ولم يقع فيها ما يسوء برغم العنف الذي تار تصريحا أو تلميحا بين المؤيدين والمعارضين. ومع أني كنت أؤيد الرأي فقد راعتني الحجة التي قدمها من عارضوني، لأن أحدهم وهو الأستاذ حسين دياب حضر ومعه عددان من مجلة (الرسالة) فهما كلمتا تشهد بأنني قلت مرتين بأن الجامعة لم تؤد رسالتها على الوجه المنشود

كانت كلمتي مكتوبة، ولكنني اختصرتها لضيق الوقت، فتجمع الحاضرون حولي عند الانصراف، ورجوني أن أنشرها في «الرسالة» كاملة ليقرأوا ما فاتهم أن يسموه، فأنا أقدمها إلى «الرسالة» تحقيقا لذلك الرجاء النبيل وتكميلا للعرض أسوق للملاحظات الآتية:

١ - أجمع المعارضون أن الصلة بين الجامعة وخريجها منقطعة تمام الانقطاع، وأن الجامعة لا تعرف غير من تراه من الطلبة والمدرسين. ولو كانت الجامعة أدت رسالتها لكان من الواجب أن تهجي لأبنائها القدماء فرصة التلاق في رحابها في كل عام مرة أو مرتين

٢ - كان اللحن الفظيع ينلب على بعض المعارضين، وكان الجمهور يقابل اللحن بالضجيج، وقد اعتذر أحد المعارضين بأن لحنه من الشواهد على أن الجامعة لم تؤد رسالتها، فكان اللفظ اعتذارا في التاريخ الحديث

٣ - وردت في خطبتي كلمة موجهة إلى العميد، فأسرع بعض المدرسين ليسر في أذني كلاما يرجوني فيه ألا أخرج العميد

وكان الظن أن يدركوا أن العميد أقوى مما يظنون؟

٤ - كان اثنان من المدرسين المشتركين في المناظرة يقلدان الدكتور طه حسين في التعابير وفي غمار الحروف، وهذا دليل على ضعف الشخصية، فأنا أحب أن يكون لكل خطيب وجود خاص

٥ - النطق قد انعدم في بعض أقوال المعارضين، فقد توهم أحدهم أن الجامعة لا تؤدي رسالتها إلا إذا عمل خريجوها بالمجان في جميع الميادين، ونص بالحرف على أن الأطباء في المستشفيات يتناولون مرتبات، وهذا في رأيه يناق الروح الجامعية

٦ - الألفاظ كانت فضفاضة عند بعض الخطباء حتى كدت أحس أن المناظرة لا تدور في الدرج الأكبر بكلية الآداب

٧ - كان أحد الخطباء يوهن أنه يتجمل مع أنه حفظ خطبته عن ظهر قلب

٨ - حدثنا أحد المعارضين عن تقاليد الجامعات الأوروبية بكلام هو غاية العجب، مع أن عينه لم تمسح برؤية جامعة أوروبية، كما قال أحد المؤيدين، فمن أين استقى هذا المدرس الفضال معلوماته البعثة عن تقاليد الجامعات الأوروبية؟

٩ - الأديب سعيد محروس كان يقلد الخطيب محمد شكرى في الإشارات والتبرعات، وهذا دليل على أن الروح لا يموت، فقد كان محمد شكرى أظهر خطباء الثورة، ثم انهزم لأنه عجز عن مسيرة الأحزاب

١٠ - الأنسة كوثر عبد السلام أجادت في الممانى، ولكنها عقت النحو عقوقا لا يطاق. فذكرتنا بقول أحد الشعراء:

منطق صائب وتلحن أحيانا وأحلى الحديث ما كان لحنا

١١ - حضر الأميرالاي على حلمى لشهود المناظرة، وفي الطريق إلى الدرج لقينا الدكتور محمود عزمى، فقال له سعادة

الأميرالاي: لملك حضرت لنفس الفرض! فقال الأستاذ محمود عزمى: إن عندي حصتين في معهد الصحافة. فقلت: هات تلاميذك ليشهدوا المناظرة، فقد يختزنون مناظر تنفع في حياتهم الصحفية، فاعتذر بلطف وانصرف

هذه هي الصحافة التي تعرفها كلية الآداب، صحافة نظرية لا عملية، صحافة تأخذ وقودها من التاريخ لا من الحياة، صحافة

ولا تنوهموا أنى ساعى الجامعة من النقد الصريح ، يوم أراها
تقع فيما يوجب الانتقاد ، فأنا أومن بأن الحرب حياة وبأن
الصلح موت ، وأنا الذى قال حين تنادى رجال الأقاليم إلى الوفاق :
دعوتهم إلى وأد الخلاف لحاذروا عواقب حلف خير آثاره الخلل
دعوا الصلح الأموات فهو غذاؤهم

هنيئاً لهم ذاك المكان الذى حلوا
الآهل سمم أن قبرا تحركت حجارته فانزاح من فوق الثقل
يجوز لقوم غيرنا أن يؤلفوا عصاباً يحمىهم من الكثرة القتل
ونحن رجال سرنا فى خلافنا وقوتنا العليا فى الفتك والوصول
تأخى الظباء الرود رضى لضعفها

وهل تعرف الأساد ما الجمع والشمل

أيها السادة :

أذكرون المناظرة التى اشتركت فيها بهذا المكان منذ
سنتين أو ثلاث ؟

لقد جئت وييمى صحائف مكتوبة ، لآمن التريد الذى
يستبيحه بعض المتناظرين ، رغبة فى كسب الأصوات ، أو طمعاً
فى التغلب على مفكر لا يمتز بغير العقل والبيان

وقد رأيت أن ألفاكم بصحائف مكتوبة ، مع أن مقامى هذا
لا يحتاج إلى احتراس ، بعد أن أعفتنى لجنة المناظرات من النضال
حين خصتني بالجانب الأقوى فى مناظرة هذا الساء ، فاعرفوا
أنى قيدت كلامي ، لأنى سألقيه فى أحد مدرجات الجامعة ،
والجامعة لا ترضى لأبنائها أن يتركوا الأوابد بلا قيود

ولكن كيف أخاف الإسراف فى إبراز محامد الجامعة ،
وليس فى الخير إسراف ؟

الجامعة هى كل ما غنمنا من جهاد الأعوام التى أربت على
الستين فى مقاومة الاحتلال

الجامعة هى صوت مصر فى الشرق ، وقد اختارت الضفة
الغربية من النيل رمزاً لما نسمو إليه من نقل عقل الغرب إلى
روح الشرق

إن الجاب الذى سأحدث عنه هو الجانب الأقوى ، ولكنه
مزعج ، لأنه سيقهرنى على مواجهة مشكلة من أصعب المشكلات ،
وهى توضيح الواضحات ، وهل ينكر أحد أن الجامعة أدت

تنكر الرحلات من حجرة إلى حجرة فى مكان محدود ، مع أن
من واجب الصحفي أن يرتحل من قطب الشمال إلى قطب الجنوب
أما بعد فأنا آسف على ما أثبت فى خطبتي من أن كلية
الآداب خدمت الصحافة بإنشاء معهد الصحافة ، ولن أحمو
ما أثبت ، لأنى لا أريد التسجيل ، وإنما أريد الإيجاء
ولم يبق إلا أن يتفضل أخى الاستاذ الزيات فينشر خطبتي
بالحرف ، مع الرجاء فى أن يتذكر أنى لم أن على الجامعة المصرية
بغير الحق ، رفع الله دعائها إلى الأبد ، وجعلها منارة باقية إلى
آخر الزمان .

أيها السادة (١)

حين دُعيت للمناظرة فى هذا الموضوع الطريف قلت لنفسى :
إن لجنة المناظرات بكلية الآداب هبط عليها الوحى من حيث
لا تحتسب ولا تعرف ، فإن هذا الوقت هو أنسب الأوقات لوزن
أعمال جامعة فؤاد الأول . ألم تسمعوا بأن الاحتفال الرسمى
بافتتاح جامعة فاروق الأول سيكون فى الأسبوع المقبل ؟

إن فى ذلك لفرصة لوزن ما لجامعة القاهرة وما عليها بالعدل
والقسطاس ، وهو أيضاً توجيه الجامعة الاسكندرية ، فأظنها
تكره أن نعد إليها يد الرفق ، لنعاونها على مصارعة الأمواج ،
وهى فى بلد الأنباج

وكان المنتظر أن أكون فى الصف الذى ينكر أن نكون
الجامعة قد أدت رسالتها ، ولكن لجنة المناظرات رأت أن قوى
فى الهجوم ، فبخلت بإعطائى فرصة جديدة أرفع فيها العلم لقلمى
وبيانى ، فى المكان الذى صاولت فيه كبار الرجال ، بغير تهيب
لعواقب الصيال

أو لعلها أرادت أن أشهد علانية بتمجيد الجامعة بعد أن
حاربت من حاربت من رجالها الأبطال . إن كان ذلك ما أرادت
فلن نال ما تريد ، لأن من رسالة الجامعة أن تروض أبناءها
على الخلاف ، ونحن نختلف أقل مما يجب ، وبأويلنا إذا لم نختلف
فلا تحسبونى أغمدت القلم الذى أعدته لمصاولة زملائى ،

(١) من هنا تنبئ الخطبة التى أتى جزء منها فى المناظرة ، بلا تبديل
ولا تعديل

لقد حملنا أعباءنا الثقيلة بلا ظهور ولا معين ، ورحبنا بالكاره
السود ، لنقنع الأمة بأن عندنا رسالة لم يجعلها أحد من قبل ،
وهي رفع راية الفكر الصادق والقلم البليغ .

في ذلك العهد كنا نسمع أن علوى باشا يطوف على الوزارات
عساه يجد أمكنة للعائدين الفائزين من بمثات الجامعة المصرية ،
وكنا نسمع أنه يجاب بأن « الحكومة ستنتظر في الأمر » وهي
عبارة ديوانية معناها أن الحكومة السنية لا تعرف من أعضاء
البمثاث إلا من تنفق عليهم من مالها الخاص ، كأن الجامعة
كفرت حين عاوت الحكومة على تنقيف بعض أبناء الجيل
الجديد !!

وحكومة مصر كما تعرفون تجهل أقدار الذين يعفونها من
التفقات عند الرغبة في التزود من الجامعات الأوروبية والأمريكية
لأغراض مردّها حب السيطرة على العلم والعلماء
فهل جزعنا فيئسنا ؟

هيئات ، ثم هيئات ، فقد رحبنا بالجهاد في مناصب الجامعة
بعضوان أقوى من عصفوان الزمان ، وقد انتصرنا على الحكومة ،
وعلى الزمان

تلك الرسالة الثانية ، في الرسالة الثالثة ؟

كان للجامعة وحيٌ يفرز القلوب والمقول ، وقد تسامى إلى
غرض أعجب وأغرب ، وهو إنطاق الصخر الجلود ، فقد أقنع
الحكومة بأن لا بد من إنشاء جامعة في الوطن الذي سبق
جميع الأوطان إلى إنشاء الجامعات ، فتألفت لجنة حكومية
عقدت في أربع سنين جلسات تفوق الثمانين ، لتقول في النهاية
بتسمية المدارس العالية كليات ، وبعض أنصار الحكومة في ذلك
العهد كانوا يعرفون الأسماء ويجهلون السميات

وحي الجامعة كان الوحي الصادق ، فقد انسحبت الحكومة
من الميدان بعد اليأس ، وبقيت الجامعة تصنع بأحلام الشباب
وقلوبهم وعقولهم ما تريد

في تلك الأيام كان أبناء الجامعة يقتحمون الميادين العلمية
والأدبية ، وكانوا يقيمون البراهين الصوادق على أن فكرة
الجامعة لن تموت ، ولو قامت في طريقها ملايين العقبات
تلك الرسالة الثالثة

رسالتها قبل أن يولد بعض مناظري في هذا المساء ؟
لم تكن للجامعة رسالة واحدة ، وإنما كانت لها رسالات ،
وإليك يساق الحديث :

كانت رسالتها الأولى أن تختبر الزائم والقلوب ، لتعرف
استعداد الأمة للتخليق في الجواء العالية ، يوم كان جماعة من
خلق الله يقولون : إن السياسة الحكيمة للتعليم هي إعداد
موظفين مصقولين . ونحن نعرف المراد من ذلك الصقل ، فقد
كان الفرض أن يكون عندنا موظفون لا يقولون « لا » ولو
في التشهد !!

وقد كان المظنون أن تحقق الجامعة في تأدية تلك الرسالة ،
فقد كان الأمر يرمثذ إلى حكومة مصقولة ، حكومة تستهدى
الاحتلال في حل بمض العضلات ، وكان الاحتلال يرى أن
مضر تحتاج إلى كتابيب لا إلى جامعات

فهل أفلحت الجامعة في إيقاف الروح القوي لتشعر المحتلين
بأن مصر شبت عن الطوق ، وانتهت من أبجديات الكتابيب ؟
هو ذلك ، فقد أقيمت الأمة على تأييد الجامعة إقبالا منقطع
النظير ، إقبالا يشهد بأن في الجسم الوهين عروفاً نابضات ،
وأن مصر علّمت فلاسفة الإغريق والرومان في العصر القديم
ستكون موثلاً علمياً لليونان والطلبيان في العصر الحديث
تلك الرسالة الأولى ، في الرسالة الثانية ؟

كانت الرسالة الثانية أن تجد الجامعة طلاباً يسمعون للظفر بإجازات
علمية ، لا تعترف بها الحكومة المصرية ، طلاباً لا أمل لهم
في الوظائف والناسب ، ولا حظ لهم غير التشرف بخدمة
الدراسات العالية ، في زمن كان فيه تراب الوظيفة أثمن من التبر
المسبوك ، وأروع من خيوط الضياء

وذلك عهدٌ عرفته بدى وروحي ، وعرفه مئ زملاء من
أبناء الجامعة في عهدها الأول ... كنا يتامى ، وكان اليتم
المضطهد بعض ما وراثنا عن الأنبياء

لم يكن للجامعة ماضٍ تستند إليه ، فقد سبقها المدارس
العالية بمشرات السنين ، وسبقها الأزهر بمشرات القرون ،
ولم يكن لنا إخوان في أي ديوان ، فقد عشنا حيناً غرباء ، وكان
من حق أي مخلوق أن يسخر منا كيف شاء ، والحر في وطنه
غريب

أيها السادة :

قبل أن أواجه العهد الثانى من عهود الجامعة المصرية ،
العهد الذى ابتدأ فى سنة ١٩٢٥ ، وهو العهد الأرحب والأخصب ،
أرى من الواجب أن أجمل القول فى العهد الأول ، بصورة
تشمركم بقيمة الرسائل التى أدتها فى ذلك العهد

كان للجامعة مبعوثون إلى الجامعات الأوروبية من أمثال
منصور فهمي ، ومحمود غزى ، وسائق جوهر ، وأحمد ضيف .
ولا ينكر أحد أن مبعوثى الجامعة كانوا أقوى من مبعوثى
الحكومة . وكانوا أقدر على النضال فى الميادين العلمية والأدبية
والاجتماعية ، وأنا فى هذا المقام أضرب الأمثال ، ولا أحاول
الاستقصاء

وكان للجامعة فى ذلك العهد أبناء تتفهم فى دارها من
أمثال : طه حسين وكمال حلمى وفريد رفاعى وتوفيق المرعشى
وأحمد الببلى وحسن إبراهيم وعبد الوهاب عزام ومحمد إبراهيم
الجزيرى ، فإذا صنع هؤلاء ؟

لن أتحدث عن جهودهم بالتفصيل ، فأنتم تعرفون من جهودهم
أكثر مما أعرف ، ويكفى أن أؤيد رأيي بشاهد واحد يصور لكم
بعض ما صنعت الجامعة فى ذلك الحين

فى سنة ١٩١٤ تخرج أول دكتور من الجامعة المصرية ،
وهو الدكتور طه حسين ، وقد قدم لامتحان الدكتوراه رسالة
سمها « ذكرى أبى العلاء » ، رسالة ظنّها الناس تأليفاً كسائر
التأليف ، ولكنها أدهشتهم حين طُبعت ، فقد رأوا أن للجامعة
فحسباً أطيّب من سائر الأنفاس ، وأدركوا أن الجامعة تخلق
أبناءها خلقاً جديداً ، وأن لها رسالة جديدة ، وأنها مصباح
سبيل ما سلف من المصاييح

ولم تكن رسالة الدكتور طه مثالاً يحذيه طلبة الجامعة
فحسب ، وإنما امتد أثرها إلى آفاق بعيدة من أقطار الشرق
وقد قدّم الدكتور طه بعد ذلك بأعوام رسالة إلى جامعة
باريس عن ابن خلدون ، ولكنها ليست فى قوة الرسالة التى قدمها
إلى الجامعة المصرية عن أبى العلاء ، فكان هذا برهاناً على أصالة
الجامعة المصرية فى تنقيف الآذواق والمقول

ثم ما ذا ؟

ثم نظرت الجامعة فرأت الحكومة تخنق التعليم فى المعاهد
العالية ، فأنشأت قسم الحقوق فى أعوام عجاف ، هى أعوام الحرب
الماضية ، وكانت النتيجة أن تعترف الحكومة نفسها بأن أبناء
الجامعة المضطهدة أقدر من أبنائها على الظفر بالدرجات العالية .
وفى ذلك العهد كانت دار الجامعة هى المونل لكبريات
الحفلات ، ففىها أقيم الاحتفال بذكرى الشيخ محمد عبده ، مع
أن الأزهر لم يحتفل بتأبين ذلك الإمام الجليل . وفىها احتُفل
بتأبين فتحنى باشا زغلول وعثمان باشا غالب ، وفىها احتُفل
بذكرى رينان ، وفىها أقيمت عميرة حافظ إبراهيم وعلوية محمد
عبد المطلب ، وعلوية عبد الحليم المصرى

وفى ذلك العهد ... ما ذا وقع فى ذلك العهد ؟

كان مجلس الجامعة المصرية ينتظم أ كابر المصريين ، وكان
هو المكان الوحيد الذى يجتمع فيه أولئك الأ كابر فى أمان من
الرقباء ، وفيه تآلف الوفد المصرى برئاسة الزعيم سعد زغلول .
ألا تكون هذه الناحية الخطيرة جانباً من رسالة الجامعة
فى عهدها الأول ؟

ذكرى مبارك

المنقذ

مذيبة بقصة « حفلة شاي »

أحدث مؤلفات

محمود تيمور بك

جمعت بين طرافة الموضوع ،

عمق التحليل ونصاعة الأسلوب .

أسى نموذج للفن الروائى الرفيع

المن ١٠ قروش والبريد ٢ قرشاً

الناشر

دار الكتب الاهلية

ميدان الأوبرا - مصر